مركـــز رواق بـغـــداد
REWAQ BAGHDAD CENTER

داعش بعد البغدادي: دراسة في مفهوم الزعامة في فكر التنظيمات المتطرفة

ISIS
After Al-Baghdadi

د.عقيل حبيب/ باحث في علم نفس الارهاب

-المقدمة

تحاول الدراسة وصف ما آل إليه مصير تنظيم داعش الارهابي منذ مقتل زعيمه المؤسس البغدادي ومقتل من خلفه على رأس التنظيم ممن اطلقوا عليهم (خلفاء)، وهم: ابو ابراهيم القريشي (أمير محمد المولى، المعروف بعبد الله قرداش)، وانباء عن مقتل ابي الحسن القريشي (يرجح انه الشقيق الأكبر لأبي بكر البغدادي جمعة عوض البدري). الوصف الذي تعتمده هذه الدراسة يأتي منظوراً إليه من خلال مفهوم (الزعامة السياسية) في فكر جماعات التطرف الديني العنيف، وبالذات التنظيمات التي تنتمي لما يعرف (السلفية الجهادية)، واعتبار الزعامة جزءاً اساسياً من استراتيجية تلك التنظيمات، ومرتكزاً مهما لعقيدتها العسكرية. كما وتجدر الاشارة الى ان الدراسة استفادت من الاطروحة الفايبرية (ماكس فيبر) في تفسير الدينامية التاريخية من خلال مفهوم القيادة او الزعامة بقسميها: القيادة الكارزمية الملهمة، والقيادة البيروقراطية الروتينية أو العقلانية. لقد كشف تاريخ تلك التنظيمات الأهمية الكبيرة لعامل الزعامة الكارزمية مقارنة بالهيكلية الادارية، وان التنظيمات الناجحة (بمنظورها الارهابي) كان لها زعماء اقوياء وملهمون وجذابون، وهذا ما اثبتته علاقة الكارزما بالشخصيات الاخرى التي تظهر في محيطه التنافسي مثل علاقة عبد الله عزام وزعامات اخوانية تاريخية كثيرة، وعلاقة ابن لادن والظواهري، وعلاقة أنور العولقي والعديد من قيادات القاعدة في الجزيرة العربية، وعلاقة زعيم تنظيم (بوكو حرام) ابو بكر شيكاو

ومحمد يوسف على الرغم من ان الثاني هو مؤسس الحركة، واخيرا علاقة ابو بكر البغدادي ومن خلفه على رأس التنظيم.

لقد انقسمت تحليلات واطروحات المحللين الغربيين ثم تبعهم المحللين العرب حول علاقة التنظيم بقيادته الى ثلاثة اقسام:

- يذهب عدد من المحللين والباحثين الى التقليل من أهمية مقتل الزعيم على التنظيم، ويسوقون عدد من الحجج من اهمها، ان تلك التنظيمات تعتبر الموت جزء من رؤيتها للعالم، وان تلك التنظيمات مبنية بطريقة تجعلها بمنأى عن مثل هذا التأثر. فقد ذهب مارك سيكمان Marc Sageman (2008) الى اعتبار مقتل ابن لادن مجرد حادثة لا ينقطع تاريخ تلك الحركات عن امثالها ابدا، رغم اهمية هذه الحادثة. وقد عد المحلل في مجال مكافحة الارهاب أكاي برتز Peratz Aki انه وبالرغم من اهمية قتل زعيم داعش إلا ان التنظيم ليس مجرد مجموعة تمارس افعال القتل والارهاب، بل هي جماعة عقائدية ايديولوجية قبل كل شيء.

- القسم الآخر من الباحثين والمحللين يذهب الى ان مقتل الزعيم يؤثر في التنظيم الى الحد الذي يفقد التنظيم توازنه، ويبلغ هذا التأثير احياناً الى حد يمكن اعتباره إيذانا بنهاية التنظيم. ويعبر اصحاب هذا الرأي عن حجتهم بأن تلك التنظيمات تقوم على نمط السلطة الملهمة بحسب التعبير الفايبري (ماكس فيبر). وابرز من يمثل هذه الاطروحة بروس هوفمان Bruce Hoffman (2008)، وباتريك جونسون الذي ذهب الى ان مقتل زعيم التنظيم يدخل التنظيم بأزمة تؤثر على التماسك الداخلي مما يفتح الباب امام انهيار نهائي للتنظيم. وذهب باراك مندلسون الاستاذ في جامعة هارفرد في بنسلفانيا الى ان القاعدة بعد ابن لادن مجرد "ظل" أو "شبح" لما كانت عليه، وان مهمة الظواهري تنحصر في حدود "المحافظة على القاعدة على قيد الحياة". ويمكن ان نضم الى هذه الفئة الرؤساء الأمريكان الذين حدث

بعهدهم مقتل القادة المتطرفين، وهم: اوباما عندما قتل ابن لادن، وترامب بالنسبة للبغدادي، وبايدن بالنسبة لأبي ابراهيم القريشي.

واذا ما نظرنا الى هذه الاطروحة نظرة استشرافية فيمكن ان ننسب اليها آراء مجموعة الباحثين الذين يقولون بأن تنظيم داعش سوف يذوب في التنظيمات الاخرى، وهو ما يشكل خطورة اكبر مما لو بقي التنظيم محافظا على تماسكه، إذ يكشف لنا تاريخ تلك التنظيمات خاصة مع تنظيمات كبرى كتنظيم داعش انها تعيد انتاج نفسها في هوية جديدة. فمثلاً تنظيم (الجهاد) المصري طور نفسه بعد عملية صهر مع جماعات (الافغان العرب) خاصة مجموعة ابن لادن و(مكتب الخدمات) التابع لعبد الله عزام، ليولد من عملية الصهر هذه تنظيم (القاعدة). وينقل الباحث بمؤسسة الاهرام بشير عبد الفتاح (2019) انه في مطلع مارس 2018 اعلن منسق الدبلوماسية الاميركية لمكافحة الارهاب ناثان سيلر أن تنظيم داعش يتكيف - بل ويتطور- مع الهزائم التي مني بها في العراق وسوريا، ويتحول الى اللامركزية، وهذا ما يجعله اكثر خطورة. وحذر مراقبون آخرون من التحاق عناصر داعش الى ما يطلق عليه (المناطق الرمادية) حيث يجدون البيئة الملائمة للنمو من جديد.

يمكن ان نتعامل مع بعض التنظيمات الارهابية التي ظهرت في مصر في ستينات وسبعينات القرن الماضي كرد فعل - وإن كان غير مباشر- لاعدام سيد قطب من قبل جمال عبد الناصر 1966 ، ومن ابرز هذه التنظيمات (الجهاد)، و(الجماعة الاسلامية)، وتيار او جماعة (السرورية) في المملكة العربية السعودية. وهنا يمكن ان نذهب مع تفريعة جديدة لاطروحة القيادة الكارزمية وهي دور هذه القيادة بعد مقتلها - او كما يطلق عليها اتباعها استشهادا- حيث تصبح محفز لقيام تنظيمات جديدة وخير مثال على ذلك ظهور عدد من التنظيمات بعد مقتل كارزما (ابي الجهاد الافغاني) عبد الله عزام وكأننا هنا نرصد تبلور بشكل مباشر وغير مباشر مفهوم " القيادة الاستشهادية " لأننا أمام تشخيص اثر القيادة الكارزمية ضمن مستويين الاول أثناء قيادتها للتنظيم والثاني بعد غيابها عن التنظيم.

- يذهب اصحاب هذا الفريق الى ان التنظيم يمكن ان يكتفي بعمليات ثأرية وانتقامية لمقتل زعيمه. ومن ابرز ممثلي هذا الاتجاه هم: جوردان-انجرام، وايتسيد.

- تداعيات مقتل البغدادي على مستقبل تنظيم داعش

من المؤكد ان مقتل الارهابي البغدادي ومن خلفه من الإرهابيين له دلالاته وتداعياته

أولاً : على مستوى هيكلية التنظيم التي شهدنا تزعزعها (لطالما وصفت من قبل الخبراء ووسائل الاعلام بمركزيتها العالية وانضباطها). لقد اعاد التنظيم هيكلة نفسه بعيداً عن موطنه الأصلي في سوريا والعراق من خلال (فروعه) في بعض المناطق النائية في افريقيا وآسيا.

ثانياً: على المستوى الرمزي بدأ التنظيم يفقد جاذبيته وتأثيره النفسي، وتحطمت اغلب الصور التي عمل على تنميطها وترسيخها اعلاميا لما ورثه من رأس لمال رمزي من سلفه (قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين) وزعيمه الكارزمي الزرقاوي.

إذن هل يمكن عد وفاة البغدادي ومن خلفه على رأس التنظيم هو بمثابة اعلان النهاية الفعلية للتنظيم وبداية موته السريري؟ واذا كان كذلك، فوفقا لأي المؤشرات والمقاييس؟

إن الاجابة عن هذين السؤالين تجرنا الى محاولة التعرف على مصير تنظيم داعش نفسه وقراءة استشرافية لمستقبله، كما تعرفنا على بعض من ملامح تنظيمات وحركات التي ربما ستنشط على الساحة الجهادية في العراق خلفا لداعش (إن وجدت). علماً ان الاجابة تأتي مقارنة بالقاعدة وزعيمها بن لادن، بوصفهما الاقرب لتنظيم داعش وزعيمه البغدادي.

في البداية يجب ان نشير - تاريخياً- الى ان التنظيمات والحركات الارهابية المتطرفة التي ظهرت على الساحة العربية تنقسم (من خلال مفهوم الزعامة

السياسية المتطرفة) الى قسمين، واحدة لا تتأثر كثيراً بمقتل أو موت زعيمها، والاخرى تدفع الثمن باهضاً لمقتل زعيمها او موته. وتقع اغلب الحركات السلفية الجهادية تحت بند الصنف الأول، أما الصنف الثاني فنستطيع ان نذكر (حركة جهيمان العتيبي) التي غابت عن المشهد تماماً بعد حادثة الحرم المكي عام 1979، وتنظيم (الهجرة والتكفير) المصري بزعامة شكري مصطفى الذي تشتت اتباعه بعد مقتل زعيمه هذا. ويمكن ان نضيف لهم تنظيم داعش، كما ستبين هذه الورقة. وهو لا يعني التقليل من خطورة هذا التنظيم حالياً (خاصة من خلال فروعه في افريقيا وجنوب وغرب اسيا)، بقدر ما يعني وضعه في مكانه المناسب ضمن الأولوية الاستراتيجية الحكومية. ومن الملاحظ ان هذه التنظيمات التي تتأثر كثيراً في مقتل زعيمها ان هذا الزعيم ينتمي تصنيفياً - بحسب فايبر- الى النمط الكارزمي، لذلك تكون علاقته بتنظيمه كعلاقة الأب بالأبن من حيث التأثير والاحتياج.

لقد تنبه العديد من الباحثين في الشأن الأمني والجماعات المتطرفة الى الأثر البليغ الذي يخلفه مقتل الزعيم السياسي في بعض تلك الجماعات، وذلك لأنها وبحسب تصنيف ماكس فيبر الشهير تنتمي الى نمط (القيادة الكارزمية) التي تعبر عن وجود أزمة (عقلانية) تجعل الجماعة في حاجة لقائد تراه يمتلك صفات استثنائية غير طبيعية أو غير مكتسبة. لهذا يصنف فيبر الانبياء والشامان والسحرة والملوك والابطال السياسيين كنموذج للقائد الكارزمي المخلص (ارتبط البغدادي في ذهن المتطرفين بصورة البطل المخلص، بل والخلاصي بالمعنى الديني العقائدي باعتباره الخليفة الموعود الذي تنطبق عليه الصفات الواردة في الاحاديث النبوية الاخروية ومرويات اخر الزمان). الكارزمي لا يخضع للشرط البيروقراطية أو السياق العقلاني، بل يقوم بالأساس على ولاء الجماعة عقائدياً. هناك الكثير من الاسباب تدفع الى اعتراف المحكومين بسلطة او قيادة الكارزما لهم، سواء من خلال معجزة أو بسبب العمق الاجتماعي لنسق البطولة، أو يعود لوحي سماوي أو سحري.

مفهوم الزعامة بين ابن لادن والبغدادي

مانويل الميدا Manuel Almeida في كتاب (القاعدة بعد بن لادن) يشير الى مقالة للكاتب المتميز فواز جرجس بعنوان (ايديولوجية القاعدة المثقلة) مبيناً ان الخبراء قد لاحظوا أن القاعدة بدأت تتغير قبل موت ابن لادن، وكان الشعور السائد هو أن البناء الهرمي الذي يتصف بدرجة عالية من المركزية والانضباط الذي كان موجودا في قمة أمجاد القاعدة وأوج عنفوانه إبأن الحرب في افغانستان لم يعد له وجود.

لقد اعتزل ابن لادن قيادة التنظيم الفعلية قبل مقتله بخمس سنوات تاركاً اتخاذ القرارات الى قادة المجاميع التي تتمتع اصلا باستقلالية كبيرة. وان المدة الطويلة التي انسحب فيها بن لادن لمجرد المحافظة على أمنه الشخصي كانت كفيلة بأن تجعل من (مجلس شورى) القاعدة وفروعها في البلدان ان تأخذ فرصتها في القيادة وتعتاد على غياب زعيمها ابن لادن.

ان بروز قيادات جهادية كارزمية صاعدة منافسة لكارزمية ابن لادن صدرتها جبهات القتال والاشتباكات المباشرة في الساحة العراقية مثل الزرقاوي والبغدادي، مما أثر على التقليل من أثر مقتل ابن لادن. وهنا يمكن ملاحظة الفرق بين (الشيخ) - كما يحلو لاتباع ابن لادن ان يلقبوه- الذي أدى (البيعة) لملا عمر، وبين (الخليفة) البغدادي ومنصبه الديني الذي يجب أن تؤدى له البيعة من قبل المسلمين في العالم كله (احتج منظري داعش بنقطة البيعة هذه لتوظيفها ضد القاعدة- للاستزادة يمكن العودة الى النسخة الالكترونية من كتاب (مد الأيادي لبيعة البغدادي)-، كما احتجت بها القاعدة ضد داعش باعتبار ان البغدادي نفسه وسلفه الزرقاوي في رقابهم بيعة لابن لادن وللظواهري من بعده قبل ان يعلن الأخير الخلافة في 2014).

كان لإعلان الخلافة اهمية لم تقتصر على المجال الديني او الرمزي بل شمل ايضا الجانب العسكري، حيث تغيرت استراتيجية قتال داعش تغيرا جذريا بعد هذا الاعلان واصبحت اقرب الى قتال الجيوش النظامية منه الى (حرب العصابات). ميدانياً وبحسب المتابعة انخفض اعتماد داعش على الانتحاريين

(الاحزمة الناسفة والسيارات المفخخة) بالمقابل ارتفعت وبشكل ملحوظ نسبة العمليات الانغماسية إذ أن هذا النمط من القتال يعتمد على انتحاري يحمل حزاماً ناسفاً وسلاح خفيف فينغمس في القتال حتى يصل إلى نقطة يراها مناسبة ليفجر نفسه، فالانغماسي يجمع بين أسلوبين قتاليين هما الانتحاري والهجوم القتالي، ويمتاز الانغماسي بعدد من الصفات الخاصة به مثل القوة البدنية والتدريب العالي وعمق الاعتقاد التكفيري والمقبولية أو التزكية من قادة المجاميع.

لا يتسع المجال لذكر جميع النقاط المهمة لفكرة القيادة أو الزعامة السياسية في فكر الجماعات المتطرفة والتي تدل ان الزعامة لم تختص فقط في النسق السياسي (الذي يتبع الى حد كبير النسق الديني بالنسبة لتلك الجماعات) بل هو ضمن النظام الاجتماعي العام. (توصلت الدراسات الانثروبولجية لأهمية مفهوم الزعامة السياسية في تأسيس النظام الاجتماعي والحفاظ عليه، وهناك العديد من الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة في المجتمعات البدائية على سبيل المثال مالينوفيسكي وفيردريك بارث وايفانز بريتشارد).

ان هذه النقاط التي اسهمت بالتضخيم الرمزي والمخيالي لدور البغدادي سوف نشهد انعكاسها السلبي على التنظيم، فمع أول ضربة حقيقية ستوجه له سوف نرى التنظيم يدفع الثمن باهضاً خاصة على نفس تلك المستويات الرمزية والمخيالية التي شكلت أساس (جاذبية) داعش وعماد خطابه الاعلامي وقاعدة جذب المقاتلين من كل مكان. فقد احدث مقتل البغدادي نهاية اسطورة (خليفة آخر الزمان) - الذي يعيد (الخلافة الراشدة)... والذي تجري على يديه الملاحم- وتحطمت صورة دولته التي وصفتها أدبياتهم ووسائل إعلامهم بأنها (باقية وتتمدد).

الخلاصة

يمكن وصف الخلل الذي اصاب داعش عقائدياً وعملياتها، تنظيمياً وحركياً، بأنه حول عقيدتها القتالية من قتال من اجل الهوية الى صراع من اجل

المحافظة على الوجود، وصار كل جهد الزعيم الذي يتولى قيادة التنظيم محصوراً بالمحافظة على آمنه الشخصي. لقد ثلمت الضربات العسكرية الموجعة التي نفذتها القوات العراقية والقوات المساندة لها تلك الهوية، ولم يعد الناس يرون حدودها وملامحها بذلك الوضوح المقزز الذي كانت تعلن عنه بشكل شبه يومي من خلال التفجيرات والهجمات واسقاط المدن وتهديد العواصم العالمية. داعش الآن تجاهد من أجل البقاء وهي تقوم بعملية هنا وعملية هناك من اجل اثبات الوجود، بعد ان تهدد كيانها بالزوال.

المراجع

- القاعدة بعد ابن لادن (2012): مجموعة مؤلفين، مركز المسبار للدراسات والبحوث.
- مائدة مستديرة حول مواجهة الجريمة الإرهابية والمقتضيات الوطنية (2019): بشير عبد الفتاح ومجموعة مؤلفين.

مركـــز رواق بغـــداد

REWAQ BAGHDAD CENTER